أُسس قوام الشخصية الفاعلة
شرح سورة الشرح

حقوق الطبع لكل مسلم صادق راغب بالتقرب إلى الله عزَّ وجلَّ
دفاعاً عن العقيدة والتوحيد والمنهج الصحيح
فجزى الله خيراً كل من يطبعه ويُوزعه
والدال على الخير كفاعله

t y

١٤٣٣ – ٢٠١٢م

النَّاشِر :

النور للإعلام الإسلامي

AL NUR ISLAMIC INFORMATION

Vesterbrogade 208 Box: 276 – 1800 Frederiksberg C. Denmark
Phone: (45) 2077 4828. E-mail: alnur1@hotmail.com

فحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم، وبالجملة فالسلامة من الخطر، أمرٌ يعِزُّ على البشر، فسترَ الله على من ستر وغفرَ لمن غفر:

فَـانْظُرْ إِلَيْهَـا نَظَـرَ المُسْتَحْسِـنِ ... وَأَحْسِـن الظَّـنَّ بِهَـا وحَسِّـنِ
وَإِنْ تَجِـدْ عَيْبـاً فَسُـدَّ الخَلَـلا ... فَجَـلَّ مَـنْ لاَ فِيـهِ عَيـبٌ وَعَـلا
وَالحَمْـدُ للهِ عَلَـى مَـا أَوْلَـى ... فَـنِعْمَ مَـا أَوْلَـى وَنِعْـمَ المَـوْلَى
ثُـمَّ الصَّـلاةُ بَعْـدَ حَمْـدِ الصَّـمَدِ ... عَلَـى النَّبِـيِّ المُصْـطَفَى مُحمَّـدِ
وَءَالِـهِ الأفَاضِـلِ الأخْيَـارِ ... مَـا انْسَـلَخَ اللَّيْـلُ مِـنَ النَّهَـارِ[1]

[1] الأبيات من «مُلحة الإعراب» للقاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبي محمد الحريري البصري (٤٤٦-٥١٦هـ/١٠٥٤-١١٢٢ م).

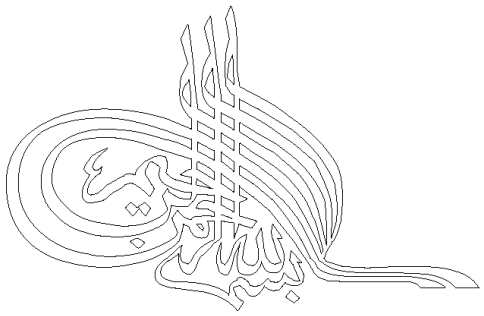
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على محمد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:-

فإنَّ الرقي الإنساني نموذجه التامّ والكامل هو رسول الله ﷺ، وقد دبَّر الله لرسوله ﷺ من القضاء الكوني في الأحداث والاختيارات أحبَّ الأمور إليه سبحانه وتعالى، وهو مع ذلك كلِّه لم يخرج من الإطار الإنساني المحكوم بسنن الوجود والحياة، فشخصيته النَّبويَّة جامعة لاختيار الإنسان المريد والمفعَّل بالحبِّ والكُره والرضا والغضب والعفو والعقوبة مع مُراد الله بالحبِّ والرضا، وللوصول إلى هذا المُرتقى الإنساني الجامع لإرادة العبد في الاختيار مع إرادة الله تعالى بالحبِّ والقبول لا بدَّ من تحقيق مطلبٍ مهمٍ؛ وهو أن تُعدَّ هذه الشخصية من خلال إرادتها على نحوٍ من النَّوع المُلائم لهذا، هذا النَّوع هو تجريد الفِطرة الإنسانيَّة من علائق التغيُّر لتعود إلى سَوِيِّتها الأُولى من التمام والسلامة، ورسول الله ﷺ إنسانٌ مريدٌ، وكل مريدٍ له اختياراته، والإنسان صناعة بيئته الطارئة على فِطرته السويَّة السليمة، وبطروئها يحصل التغيير والتبديل والنقص، ولحمل الإنسان إرادته على مُراد الله ليحصل التوافق الذي يحقق نموذج الرقي الإنساني لا بدَّ من إصلاح هذا الطروء للعودة إلى سواء الفِطرة.

هذه عمليَّة صقلٍ وإعدادٍ، والعابد والداعي والمجاهد والعالم هم وُرَّاث هذا النموذج التامِّ والكامل، وهؤلاء مع إرادتهم ومشيئتهم في تحقيق الحبِّ والرضى الإلهيين إلاَّ أنَّ دخولهم لهذه المراتب لا يكون إلا بالاصطفاء، وهؤلاء هم وُرَّاث النُّبوَّة، ففي كلِّ واحدٍ منهم قبسٌ من نورها، ومعنىً من معانيها، تجري في

صدورهم المعاني والإرادات من نهر النُّبوة العظيم، ومن جوامع هذه المعاني أنهم أهل اصطفاء كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر: ٣٢]. وهذه الآية من سورة «فاطر»، وهي سورة موضوعها التنوُّع؛ تنوُّع الخلق وتنوُّع الاصطفاء كذلك، ومن أنواع الاصطفاء أن تتوزع أعمال النُّبوَّة سوى الوحي الكامل على عباده الصالحين، وقد قلتُ: «الوحي الكامل» لحديث النَّبيِّ ﷺ: «ذَهَبَت النُّبْوَّةِ، وَبَقِيَت المُبَشِّرَاتُ»[1]. ولأنَّ الرؤيا جزءٌ من النُّبوَّة كما في الحديث.

هذا الاصطفاء هو منَّةٌ إلهيَّةٌ، وهي نعمةٌ كَكُلِّ نِعَمِ الله تعالى على عبيده تُوجب الملاحظة والإدراك ثم الشكر، والنعم لا يُؤدي العبد شُكرها حتى يُدرك معانيها ويشعر بها ويعرف قيمتها، وهذا الإدراك ليس هو الغرور ولا الإدعاء، وهو لا يختلف في نوعه عن إدراك المرء لنعمة المال والصحة وغيرهما من النعم الماديَّة المحسوسة، وككلِّ النعم التي يُدركها المرء على معنى صحيح فإنَّها تؤدي إلى التواضع وطلب الإخبات بالشكر والدعاء.

في سورة«الشرح» حديثٌ جامعٌ لهذا الاصطفاء وتنوُّعه، وقد قسَّمت السورة الاصطفاء إلى نوعين؛ نوع إزالة لعلائق السلوك الإنساني في مسيرته وحياته، ونوع زيادة لحصول الفرادة للدَّاعي والعامل لدين الله تعالى كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومع هذا الاصطفاء إرشاد إلى أنَّ المصطفى هو إنسان تجري عليه سنن البشر وتقلبات الدهر وأحداثه، لكن لهذا المصطفى خصوصيَّة العاقبة التي يفترق بها

---

[1] «المُسند»: ٥٢٦/٧/ح٢٦٧٣٥. «سنن الدارمي»: ١٢٣/٢/ح٢١٣٩. «صحيح ابن حبان»: ٤٥٧/٥/ح٥٩٤٥. «سنن ابن ماجه»: ١٢٨٣/٢/ح٣٩٨٠. «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»: ٣٦١/٧/ح١١٧٢١. عنْ أُمِّ كُرْزٍ الكعبيةِ رضي الله عنها.

عن غيره من المحرومين، كما أن هذا الاصطفاء لا يعفي المصطفى من سلوك الثبات على الطريق واستمراره عليها، إذ بالدوام يكون ثبات الاصطفاء، وارتفاع إرادة التعبُّد يعني حرمان صاحبها من هذا الاصطفاء.

لهذه السورة معنى خاص في حياة المؤمن، وآيتها: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]. شعارهم الذي يتزوَّدون به في رحلتهم إلى اليقين، وهي في أُفق حروفها ومطلع تساؤلها داعية غناء وترنم في الخلوة والسرى، فهي غناء للروح والنفس، وغناء للسان والسمع، وهذا مع عظمته فإنَّ المؤمن لا ينبغي له في أثناء دخوله في هذا النُّور أن يغفل عن بيئة هذا النُّور والوعد، وهو نفسه وإرادته وسلوكه، وهذه هي معاني الاصطفاء، فإنَّ القرآن لا يعطي الوعد إلاَّ بالحقِّ، وقد فسَّر هذا رسول الله ﷺ بقوله عن سورة «الفاتحة» في الحديث القدسي: «قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي»[1]. فإنَّ العطاء لا يكون إلا بالتأهل، وفساد الوعاء مفسد لما بداخله، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ. سَمِعَ نَقِيضاً مِنْ فَوْقِهِ. فَرَفَعَ رَأْسَهُ. فَقَالَ: هذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ. لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ. فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ. فَقَالَ: هذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ. لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ. فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ. فَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ»، ومن تأمل السورة والخواتيم رأى أنهما لا يشتملان على عطاء ومِنن فقط، بل فيهما أمرٌ وتكليفٌ، ففي الخواتيم قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾...إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥]، كما أنَّ في السورة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

[1] «صحيح مسلم»: ٤/٨٥/ح٨٢٩، ٤/٨٦/ح٨٣١.

فهذه السورة تُبيِّنُ الإعداد الربَّاني للعامل لدين الله تعالى من أجل حمل المهمَّة الثقيلة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [المزمل: ٥]، ومن خلال هذا البيَّان تُعَلِّم حملة القرآن موانع أداء الرسالة وبلوغ المراد، كما أنها ترسم مسيرة الإنسان وتقلبه في ظروفه وأحواله مع تميز حال المؤمن القدري في نوع إرادة الله فيه، كما فيها شأن المؤمن الوارث في ثباته وديمومة العمل الصالح حتى اليقين.

هي سورة من ثمان آيات، كلُّ آية تمثل جملة واحدة، ككلِّ سمات السور المكيَّة التي تجري هذا المجرى من القذف السريع الثقيل المُتواصل، إذ تصل إلى المُراد على نوعٍ من الخطف الذي يشدُّ السمع ويقرعه، ويُنبِّه القلب ويثوِّره، فلا تكاد تبدأ السورة حتى تنتهي، فتملأ وتُغْني، لغزارة المعاني الكامنة في اللفظ الواحد الجامع، وهي سورة تجتمع مع سور مكية أُخرى كـ«الأعلى» و«الغاشية»، و«**ألم تر**»، و«**أرأيتَ**»، وقبلهن نزولاً أول آية نزلت ﴿ اقْرَأْ ﴾ [العلق: ١] تخاطب رسول الله ﷺ، مع فرادتها حين تكون السورة عدًّا للنعم الإلهيَّة التي أسبغها الله على هذا الإنسان المصطفى «بأبي هو وأمي»؛ أي شخص رسول الله ﷺ.

وهي السورة التي تلي سورة «الضحى»، وفيها ذكر النعم الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة وذكر بينهما نعمة الهداية والإيمان التي أسبغت على رسول الله ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨]. وختمت سورة «الضحى» بقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى: ١١]، ومع أنَّ سورة «الضحى» فيها ذكر النعم التي أمر رسول ﷺ بالإخبار عنها إلاَّ أنَّ سورة «الشرح» فيها كذلك الجواب عن سؤال السائل لو سأل: ما هي النعم التي يخبر بها الله تعالى خلقه! إذ فيها الجواب: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾... السورة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١].

بهذا المطلع من السؤال التقريري المُلقى على قلب رسول الله ﷺ تبدأ هذه السورة، وكأن قبلها حوار قائم أو تساؤل في النفس فيهما حاجة لهذا التذكير من النعم، أو كأنَّه تساؤل يقدم الأرضيَّة التي تحقق الدفع لواجب يتلاءم مع هذه النعم التي يستحقها هذا الواجب، ولمعرفة هذين الأمرين فإن ما يحققها هو معرفة حال رسول الله ﷺ في هذه الفترة التي يحياها في مكَّة، وهي مرحلة كان فيها طوفان سؤالات ومشاعر وأحوال تحياها هذه النفس التي فُوجئت بهذا الطارئ عليها من الوحي والنُّبوَّة.

بمراجعة سيرة الرسول ﷺ وأحواله عند طروء الوحي والنُّبوة نجد أن ما يشغل نفس النَّبي ﷺ هو هذه النُّبوَّة التي فُوجئت نفسه بها، ولم يكن له ﷺ اطلاع على معارفها أو معانيها من قبل أبداً والأمر كما قال تعالى في سورة «القصص»: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، فليس هناك أي وعي لهذه النفس الشريفة أنَّها تعد لهذا الأمر أو لغير ذلك، ولا هي لها خبرة بتاريخ النُّبوَّة وأحوالها، ولذلك لّما حصل له الوحي في غار حراء وقع له ما جاء في الحديث التالي من قول الصدِّيقة عائشة رضي الله عنها: «كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ ـ قَالَ وَالتَّحَنُّثُ التَّعَبُّدُ ـ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهْوَ فِى غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَا أَنَا بِقَارِئٍ». قَالَ «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجُهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي. فَقَالَ اقْرَأْ. قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجُهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي. فَقَالَ اقْرَأْ. قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجُهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي. فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ

مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾». الآيَاتِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾. فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي». فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ قَالَ لِخَدِيجَةَ: «أَيْ خَدِيجَةُ مَا لِي، لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»[1].

ثم إنَّ سيرة الرسل ومنهم رسول الله ﷺ حين مجيء النُّبوة والرسالة أن تبدأ النفس باستشعار عظمة المهمَّة المُلقى على كاهلها، فهذا موسى عليه السلام حين أمر بالذهاب إلى فرعون وتبليغه الرسالة يقول لربِّه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢- ١٤]، وكذلك وقع لرسول الله ﷺ لما عَلِمَ أنَّ قومه سيُخرجونه من مكَّة كما أخبره الرجل الصالح ورقة بن نوفل فقال ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟!»[2].

ومن المعلوم أنَّ المهمات العظيمة والأسئلة الثقيلة المُفاجئة تلقي على النفس ظلال التعب والضيق، وتملأ جوانح النفس بالهمِّ والاضطراب ولذلك فإنَّ مجيء الاطمئنان والعلم يحقق انشراح النفس وانبساطها، وهي حالة تؤدي إلى وعيٍ تامٍ وفهمٍ مستقرٍ، وهو فرح الإيمان والعلم كما قال تعالى في سورة «يونس»: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٥٨]. فهذا هو الفرح الوحيد الممدوح في القرآن وهو فرح المؤمنين بالعلم والاطمئنان كما قال تعالى: ﴿مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ ﴾، وأمَّا فرح غيرهم فمذموم، بل هو سبب عذاب الله تعالى عليهم يوم القيامة كما قال تعالى سبحانه في «غافر» مُبيِّناً سبب العذاب عليهم قوله: ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [غافر:

---

[1] «صحيح البخاري»: ٤/١٨٩٤/ح٤٩٥٣، ٦/٢٥٦١/ح٦٩٨٢.

[2] «صحيح البخاري»: ١/٤/ح٣. «صحيح مسلم»: ٢/١٦١/ح٣٥٨.

٧٥]. وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى في ختام هذه السورة الفرح الباطل بقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [غافر: ٨٣]. وهو الفرح بالباطل.

هذا هو شرح الصدر مع حال النُّبوَّة، حيث يحصل الاطمئنان والعلم، وقد جاء في القرآن بيان الحال المخالف لذلك؛ أي ضيق الصدر والحيرة، وهو يحصل أعظم ما يكون بالشرك، لأنَّ الشرك في بعض وجوهه حيرة كما قال تعالى في سورة «الحج»: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحج: ٣١]، فالشرك إمَّا أن يكون بالحيرة والاضطراب فمثله في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ ومن كان هذا حاله فهو غير مستقر على حال أبداً، وإمَّا أن يستقر في ظلمة الشرك على حال واحد منه ومثله فيها في قوله تعالى: ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ وفي سورة «الأنعام» قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنعام: ٧١]. فضيق الصدر واضطرابه، وحيرة النفس وعدم استقرارها، وتوزع الهموم وتشتت البال موانع الهدى، ويُقابل ذلك كلَّه حصول اليقين والعلم والاطمئنان ولا يكون لهذه وجود إلا مع انشراح الصدر حيث يستقر العلم ويقع اليقين ويحصل الثبات كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فشرح الصدر حال عِلْمٍ وعَمَلٍ، وليس مجرَّد خير معرفي لا يمتزج مع النفس والحياة والإرادة، والذي وقع لرسوله ﷺ من حال التسليم والرضا والاطمئنان لما يُلقى عليه إنما هو الذي حقق له الانشراح.

الحيرة جهل وقلق، وهي ظلمة تلقي على النفس قيوداً من الخوف والاضطراب فيقع معها الضيق، والعلم النافع نور يُذهب الظلمة فيحصل الانشراح والبسط، ويتحقق الاطمئنان، وهذا ما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام حين طلب رؤية كيفيَّة إحياء الموتى وعَلل الطلب بقوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، والعلم له حالان؛ حال إيمان ولا يكون هذا الاسم إلا لما هو غيبي، فلا يُقال للمشاهد مؤمن، وإنما يُقال للمصدق بالغيب، وأمَّا الحال الآخر فهو حال مشاهدة بالبصر أو بالبصيرة، وهو حال الاطمئنان، وللمرور إلى حال الاطمئنان لا يكون إلاَّ بالحال الأول، وهي حال لا تكون إلا بتسليم القلب لمحنة الأقدار والتشريعات، حتى مع كراهة النفس أو عدم فِقهها، ويشهد لهذا حديث سبب نزول خواتيم سورة «البقرة» ففيه أنَّه: «لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤]. قَالَ فَاشْتَدَّ ذلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ. فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللهِ! كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ. الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ. وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هذِهِ الآيَةُ. وَلاَ نُطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ. فَأَنْزَلَ الله فِي إِثْرِهَا: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا الله تَعَالَى، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. (قَالَ: نَعَمْ) ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. (قَالَ: نَعَمْ) ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا

﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. (قَالَ: نَعَمْ) ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦]. (قَالَ: نَعَمْ)»[1].

فقوله: «فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ» دلَّ هذا على المُجاهدة لما هو مكروهٌ في النفوس، وكذلك عدم إدراك المقصود، وهذا هو ابتلاء العِلم، وأما ابتلاء القدر فهو أشد للدَّاعي والعامل[2]، إذ تمر الأقدار الكثيرة عليه وهو لا يفهم وجهها، وتغيب عنه عاقبتها كحال كلِّ ابتلاء، وهو من جنس ما وقع للصَّحابة في الحُديبية حيث غاب عنهم معناها حتى سمَّى الله ما وقع فيها «فتحاً»، وقد وقع من كِبارهم كالفاروق ﷺ من القول والحال ما استغفروا الله عليه بعد ذلك فإنَّه قال: «فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالاً»[3]. وذلك لَّما كان من مُراجعته لرسول الله ﷺ في أمر الصلح.

فتمام الاطمئنان يكون باستقرار العِلم حالاً، وبدفع العوارض عنه، وهذا لا يكون إلاَّ بالعمل الصالح وديمومته، وبرؤية الأقدار على وجهها من المعاني والإرادات الإلهيَّة، وأَولى النَّاس بهذين الأمرين هما العالِم العابد والعامل المجاهد، داعياً في مقام الدعوة، آمراً بالمعروف وناهٍ عنِ المنكر، فكلاهما يُعاني مشكلات الوجود؛ العلميَّة والعمليَّة والله يقول: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢].

يشغب على هذا المعنى رؤية الجاهل المطمئن، والساكن الآمن، حيث يظن فيهما الانشراح بلا مُعاناة علم ولا مجاهدة دعوة، وهذا تشغيب لا قيمة له، لأن الجاهل المُطمئن والساكن الآمن إنما انماثت إرادته، فقعدت عن المعالي والمعاني، وهذا ليس انشراح صدر، فإن الانشراح الحقيقي لا يكون إلاَّ مع إرادة المعالي

---

[1] «صحيح مسلم»: ١٩٩/٢/ح٢٨٨.

[2] قال الشيخ حفظه الله للداعي والعامل ولم يقل على الداعي والعامل لأن الابتلاء منحة في نفوس المؤمنين.

[3] «صحيح البخاري»: ٩٧٤/٢/ح٢٦٧٣.

والمعاني، حيث ترتاح النفس لهما، أمَّا أن يُزعم أنَّ خُلو الإنسان عن الإرادة والهمَّة يحقق له الراحة فهذا خروج عن حال الإيمان القرآني وذلك في قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]، وقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ»[١]، وقوله ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ»[٢].

والقصد أنَّ الانشراح القلبي يكون بالخروج من الظلمات إلى النُّور، وأعلى الظلم هو الشرك ثم توابعه من المعاصي والفسوق، ثم بالعلم القرآني النافع، وأما للداعي إلى الله فإنَّما يتحقق باليقين على حِكمة الله في أقداره، وذلك برؤية أسبابها وآثارها وعواقبها وحِكمتها.

فبالعودة إلى الحال الأول الذي عليه رسول الله ﷺ عند حصول الوحي هو خوفه من هذا الطارئ وعدم إدراك معناه على وجه الاطمئنان، ثم الخوف من مستقبله مع النَّاس حيث واجهه ورقة بن نوفل رَحِمَهُ اللَّهُ بما سيُلاقيه في هذا السبيل، فالأول علمي والثاني قدري.

فبشرح الصدر دُفِعَ الأمران، وحصل لرسول الله ﷺ القبول القلبي لهذا العِلْمِ الوارد، وهذا الطارئ الجديد، وتحقق له معناه بأنَّه الحقُّ وأنَّها النُّبوَّة، كما حصل له اليقين على دخوله في سِلك السابقين من الأنبياء وأنَّ حاله كحالهم، وما سيكون له إنَّما جرى للسابقين من إخوانه، فتحقق اجتماع الرضى القلبي مع الحقِّ الوارد، وهذا لَعَمْرُ الله هو تمام الانشراح والبسط، حيث يحصل اجتماع مُراد العبد بالرضى مع مُراد الربِّ بالأمر والقدر، وعلى الضدِّ من هذا الشرح

---

[١] «شعب الإيمان»: ٤/٣٣٤/ح٥٣١٢.

[٢] «المُسند»: ٦/٤٣٨/ح٢٢٣٦٠. «مسند البزار»: ١/١٣٩/ح٤٢٠٣. بزيادة: «..فإنه أعلى الجنة». وقال: وهذا الحديث قد روي نحو كلامه عن النَّبيِّ ﷺ من غير وجه ولا نعلم يُروى عن العِرباض إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

الإلهي يقع القبض عنِ الحقِّ وعدم رِضاه، أو البسط إلى الباطل والاستمتاع به، والقرآن في هذا بيّن في إيضاح الحالات القلبيَّة مع الباطل، فهو يتحدث عن حالين معه؛ **أمَّا الأول**: فهو الضيق كما قال تعالى ـ وقد تقدم ـ: ﴿ **وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا** ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، أو كقوله: ﴿ **كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا** ﴾ [الأنعام: ٧١]، أو كقوله: ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ** ﴾ [الحج: ٣١]. وهذا كلُّه داخل في قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [طه: ١٢٤].

أمَّا الآخر: فهو البسط إلى الباطل والاستمتاع به كما قال تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ** ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وقوله: ﴿ **وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ** ﴾ [البقرة: ٩٣]، وكقوله تعالى: ﴿ **كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

والحال الثاني أعظم ضلالاً من الأول، ولا يكون إلاَّ بالمرور من الحال الأول، وهذا تراه في كبار المجرمين والمشركين وطواغيتهم، فإنهم يستلذون بالباطل ويتمتعون به وتنبسط قلوبهم له، بل قد تظهر لهم أحوال من اللذَّة النفسية والعقلية ما يجعلهم في حال استغراق بعيد لما هم فيه، وهي لذَّة تشبه لذَّة المريض بالجرب حين يهرش جسده منه، وهي لذَّة مُدمن المخدرات التي تقتله حين يأخذها، وهكذا.

وهذا الحال خطير جداً، إذ قد يُصيب كلَّ مُتَّبعٍ لباطل حتى لو لم يكن شِركاً، فإن قوله تعالى: ﴿ **كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** ﴾ عامٌّ في كلِّ عاملٍ ومُتَّبعٍ، وليس هذا من الشرح الذي يُصيب قلوب أهل الحقِّ، لأنَّ هذا التزيين ليس هو الحال الأول الذي يقع به مُتَّبع الباطل، بل إنَّ للباطل ظُلمة في القلوب، فما أن يقع ابتداءً حتى تُنكره النفس للحديث: «والباطل لجلج»، لكن مع طول السكوت يحصل الائتلاف والتزيين، وأمَّا مُتَّبع الحقِّ فإنَّ ما يقع له من الشرح إنَّما يكون منذ الدفقة

الأولى كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وكما قيل: «الحقُّ أبلج»، وهذا ما يقع لكلِّ مهتدٍ للحقِّ كما في القصص المُتواترة في ذلك، ومنها ما وقع للصَّحابة ﷺ حيث يكثر القول في قصص إسلامهم من تغيّر وجوههم فيُقال: «رجع بغير الوجه الذي ذهب به»[١]، وهذا كلُّه يدخل في هذا المعنى.

لكن كيف تكره النفس الحقَّ ولا تنشرح له؟!

اعلمْ أنَّ كراهية النفس للحقِّ يكون لمعاني متعددة، منها كراهة النفس للتكليف وذلك كقوله ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»[٢]، ومنها استمراء النفس على الباطل وطول ألفتها له، ولذلك فالعاقل لا يتبع انشراح النفس ابتداءً، إنَّما يَتَّبع الحقَّ حتى لو كرهه، ففي الحديث الذي رواه أحمد[٣] عن أنس: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لرجل: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ» قال: إنِّي أجدني كارهاً، قال: «أَسْلِمْ وإنْ كُنْت كَارِهاً».

وهذا العاقل بعد اتِّباع الحقِّ والصبر عليه سيجد لذَّة الانشراح له بعد ذلك.

والنعم قد تُعطى ابتداءً، وقد تُعطى بعد مُعاناةٍ، وذلك كنعمة القوَّة، فقد يُمنُّ الله بها على عبدٍ مع مولده دون مُعاناةٍ شديدةٍ منه، وقد يُحصِّلها بعد طُولِ مُعاناةٍ وتمرين، ولكلٍّ واحدةٍ فضلها، أما إن سئل ما الأفضل، فإن ما يُعطى في الابتداء

---

[١] قيلت في أُسيد وسعد بن معاذ رضي الله عنهما بعد أن عرض عليهما مُصعب بن عُمير ﷺ الإسلام فأسلما، وبسبب إسلام سعد بن معاذ ما أمسى في قومه رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمةً، إلا رجل واحد ـ وهو الأُصَيْرِم ـ تأخر إسلامه إلى يوم أُحد، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقُتل، ولم يسجد لله سجدة، فقال النَّبي ﷺ: «عمل قليلاً وأجر كثيراً». «صحيح البخاري»: ٣/١٠٣٤/ح٢٧٤٧.

انظر القصة في كتاب: «الرحيق المختوم» لصفي الرحمن المباركفوري ـ رحمه الله تعالى.

[٢] «صحيح مسلم»: ١٧/١٣٨/ح٧٠٧٩.

[٣] «المُسند»: ٣/٥٤٩/ح١١٨٠٥، ٤/٢٥/ح١٢٥٧٦. وهو أيضاً عند أبي يعلى الموصلي في «مسنده»: ١٩/٣٤٤/ح٣٨٨٢. وقال عنه الهيثمي في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»: ٥/٥٥٤/ح٩٥٨٣: رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح.

يحصل فضله بالشكر وإلاَّ فهو نقمة، وأما ما يُعطى بالعناء فشكره هو تحصيله، فمن شرح الله صدره لحقٍّ ابتداءً فإنَّ حصول الفضل لهذا المرء أن يُؤدي شكرها وإلاَّ انقلب ضيقاً وفاته فضلها، وأمَّا مَن حصل له الشرح بعد مُعاناةٍ فإنَّ فضلها هو تحصيلها، ففي المآل إنْ استقرت نعمة الشكر لهما فإنَّما التفاضل بالعمل لا بذات النعمة، والله أعلم.

فهذه النعمة مِن شرح الصدر هي مقدمة كلِّ النعم، فليس هناك من نعمة في الوجود يحصل لصاحبها خيرها إلا بشرح الصدر لها ابتداءً ولغيرها معها، وإلا فالمرء إنما يسعد لِما يُحسُّ من معانٍ في باطنه للنعم الظاهرة والباطنة، فكم من صاحب نعمة وهو من أشقى النَّاس بها أو بغيرها فلا يُحسُّ بها ولا بغيرها، وهذا من أشدِّ العذاب كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

فشرح الصدر للمعاني يكون نعمة إذا كانت المعاني حقّاً، وشرح الصدر للنعم الظاهرة أمرٌ زائدٌ عليها لا يحصل التنعُّم بها إلا مع هذا الشرح وإلا فهي ضيق، وسيفوت الإنسان التنعّم والتلذذ بها.

وحاجة الداعي خصوصاً لشرح الصدر أكثر من حاجة غيره إليها، لأنَّ الدعوة حمل وابتلاء، وآلام ومُعاناة، ومن غير شرح الصدر للحقِّ الذي يحمله فإنَّ طول الطريق ستؤدي به حتماً إلى الهرب والتخلِّي، وبشرح الصدر تصبح الدعوة للحقِّ وتحمل البلاء في سبيله رغبةً وفرحاً، ولا يكون له هذا الفضل إلاَّ بالعلم حالاً ومقاماً، وبإدراك حكم الأقدار والتسليم ليد الله تعالى فيها حتى تذوب إرادته، فتتحقق فيه العبودية التامة، إذ أنَّ هذا معنى العبودية، فإنَّ كلمةَ العبد حقيقتها التسليم وترك الاعتراض باطناً وظاهراً.

هذا المنّ الإلهي على رسوله ﷺ بقوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ [الشرح: ١]. يُبيِّن لك أهميَّة حال الوعاء الحامل للمعاني، إذ لا يكفي أن تكون المعاني صالحة، بل

لا بدَّ مِن صلاح الوعاء، وهذا بابٌ من أبواب القَدر الذي استأثر الله علمه به، وهو داخل في قوله ﷺ: «إذا ذُكر القدر فأمسكوا»[١]، لأنَّه لو سأل سائل لِمَ خَلَقَ الله وعاءً صالحاً ووعاءً فاسداً وما هو مِعيار هذا التقسيم القَدري في عالم الغيب، لَكان الجواب: إنَّ هذا مما قال فيه ابن عباس رضي الله عنهما: «الناظر في القدر كالناظر في الشمس كلَّما ازداد فيها نظراً ازداد فيها حيرة»[٢]، والله يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، وعلى العبد إنْ عَلِمَ الحقَّ أن يجاهد نفسه لتحصيل حُبِّه، فإن لم يحصل له ذلك فليعمل به مجاهداً لنفسه عملاً وامتثالاً.

يقول تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ [الشرح: ٢ ـ ٣].

تقدَّم أنَّ شرح الصدر الممدوح يكون للحقِّ، ولَّما كان الإنسان له نصيبٌ من الوزر كما قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ ابنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[٣] ولقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ ...الحديث»[٤]. كان من عوارض هذا الشرح هو الذنب، لأنَّه ظلمة وضيق كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ولقوله تعالى عن ابن آدم الأول لما قتل أخاه: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾ [المائدة: ٣١]، ولقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]. وغير

---

[١] «مُسند الحارث» للهيثمي: ٢/٧٤٨/ح٧٥٢. وقال عنه الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء»: رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن.

[٢] ذكره ابن عبد البر رحمه الله تعالى في «جامع بيان العلم وفضله»: ١/٩٤٥. ونسبه إلى جعفر بن محمد.

[٣] «سنن الترمذي»: ٧/٢١٣/ح٢٥٤٧. وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ لا نَعْرِفُهُ إلاَ من حديثِ عَلِيِّ بنِ مَسْعَدَةَ عن قَتَادَةَ. ولأحمد في «المسند»: ٤/٥٣/ح١٢٧٥٧. رواية عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، فَخَيْرُ الخطَّائينَ التَّوَّابُونَ، وَلَوْ أنَّ لابْنِ آدَمَ وَادِيَيْنِ مِنْ مالٍ لابْتَغَى لَهُما ثالثاً، ولا يَمْلأ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلاّ التُّرابُ».

[٤] «صحيح البخاري»: ٥/٢٣٠٤/ح٦٢٤٣. طرفه ٦٦١٢.

ذلك من الآيات، كان من تمام استقرار نعمة الشرح ومِن دفع الإرادة وانطلاقها لمهمات العبودية أن يرفع الوزر الثقيل عنِ الداعي العامل، ولذلك كان من أعظم النعم على رسوله ﷺ أن قال له في بيان نعمة الفتح والنَّصر: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١ ـ٢]، وبحصول هذا الفضل العظيم كان الارتقاء إلى نعمة الشكر كما قال رسولنا ﷺ لأُمنا عائشة رضي الله عنها: «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»[1].

ومن مُبشرات الأنبياء لشعوبهم آمنوا حصول المغفرة ورفع الذنب كما بشر بذلك نوح عليه السلام أُمَّته بقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣ ـ٤]، وكقوله تعالى على لسان نوح وهود وصالح لأقوامهم: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وهذا ما قالته الجنُّ لأقوامهم لما سمعوا القرآن: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وذلك لفِقههم أنَّ أعظم النعم الربَّانيَّة على العبد هو محو الذنب ورفع الوِزر، وهذا لا يعرف قيمته إلاَّ مَن عَلِمَ معنى الذنب، فإنَّ الذنب ظُلْمٌ لحقِّ الله تعالى وظلم الإنسان لنفسه وظلمٌ للوجود كلِّه، فإنَّ أثر الذنب لا يقتصر على نفس الإنسان بل على الوجود كلِّه من سماواتٍ وأرضٍ وشجرٍ وجبالٍ ودوابٍ، وهذا في ذنب الإنسان مع نفسه، فإنْ كان ذنبه مُتعدياً في ذاته فإنَّ أثره أعظم وجريمته أشد، ولذلك كان أعظم الذنب بعد الشرك بالله هو ظلم النَّاس وإفسادهم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ۝٨٨﴾ [النحل: ٨٨].

---

[1] «صحيح البخاري»: ١/ ٣٨٠/ح١١١٣، ٤/ ١٨٣٠/ح٤٧١٧، ٥/ ٢٣٧٥/ح٦٤٧١. طرفاه ١١٣٠، ٤٨٣٦. «صحيح مسلم»: ١٧/ ١٣٦/ح٧٠٧٣، ٧٠٧٤، ٧٠٧٥.

فالعاقل يجتنبُ الذنب لمعاني كثيرة أولها أنَّ هذا خروج عن حدِّ العبودية لله تعالى، والله عزَّ وجلَّ يغار، وغيرته أن يأتي العبد ما حرَّم الله، وبالخروج عنِ العبوديَّة يحصل تسلُّط العدو على الإنسان كما قال تعالى عن الصَّحابة ﷺ في أُحد: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٥]، والعبد العاقل يأنف أن يكون دابَّة يُقاد مِنْ قِبل خصمه، وأعظم خصومه الشيطان، ومن المعاني التي تمنع العبد اقتراف الذَّنب هو خروج العبد عن حدِّ الحياء بالذَّنب، فإنَّ الذَّنبَ عورة، فحيث يحصل للعبد ذنب يتم كشف عورته كما وقع لأبيه آدم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، لأنَّ الذنبَّ يعني الضعف والسوأة، والعاقل يأنف من كشف سوأته وعورته، والعاقل حيي يستتر عما يهينه ويصغره.

كما أنَّ العاقلَ يجتنبُ الذَّنبَ لآثار هذا الذَّنبِ، وأول آثاره وقوع غضب الربِّ عليه، والعبد واصب القدر في إرضاء سيده، معرض عما يوقع غضبه، كما أنَّ الذَّنبَ ظُلمةٌ للنَّفس ومُذهبٌ لنورها، وهو مميتٌ لإرادتها إلى الطاعات، مع ما على الذَّنب من عذابٍ أُخرويٍّ، ولذلك فإنَّ النِّعمةَ في الذَّنب أنْ لا يقعَ فيه العبد ويعصمه الله منه كما وقع هذا للمحسنين من عباده، فهذا يوسف عليه السلام يقول الله في منِّه عليه حيث منعه الفاحشة: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]. وقال عن أُمِّ موسى عليهما السلام: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: ١٠]، وقال عن نبيِّه محمد ﷺ وأخصِّ أصحابه من المهاجرين والأنصار في غزوة تبوك: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧].